الفصل الثاني

وثيقة إنشاء الدولة الإسلامية في المدينة

دراسة على ضوء أحكام القانون العام

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني
وثيقة إنشاء الدولة الإسلامية في المدينة
دراسة على ضوء أحكام القانون العام

مقدمة:

١- لا شك أن ما كتب عن السيرة والسنة حديثا من مؤلفات ودراسات، يغطى الكثير من نواحي عظمة صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم، ويجلى وجوه الهداية التى تركها صاحب السيرة للناس، ولكن لما كانت دراسة الوثائق من الدراسات التى لم تأخذ حقها في الدراسات الحديثة، مع أن الوثائق أهم من وجهة النظر العلمية من الكتابات المرسلة؛ لأنها تحمل طابعا رسميا وتصدر عن سلطة من سلطات الدولة؛ لذا آلينا على أنفسنا أن نتناول ما يقع بين أيدينا من وثائق الدولة الإسلامية بالدراسة والتمحيص لنتبين من خلالها أحداث الحياة التشريعية والسياسية والاقتصادية للدولة الإسلامية، وكان من الطبيعي أن نبدأ بالوثيقة الأساسية الأولى التى أقامت الدولة الإسلامية، والتي أطلقنا عليها -لهذا السبب- وثيقة إنشاء الدولة الإسلامية.

٢- والتصور العام للوثائق الدستورية في العصور الحديثة، يأتي من فكرة اجتماع الأفراد الذين يرغبون في إقامة مجتمع سياسي ما - والذى يطلق عليه حديثا اسم الدولة- وتكوينهم (جمعية تأسيسية) تضع الأسس المتفق عليها لتنظيم علاقات هؤلاء الأفراد ببعضهم البعض وعلى وجه الخصوص بالسلطة التى تحكمهم، إن الجمعية التأسيسية -بعبارة أوضح- تضع دستور الجماعة، ومن خصائص هذه الجمعية التأسيسية أنها مُنشِئة وليست مُنشَأة، أي لا توجد سلطة فوقها، إنها الهيئة المكونة للجماعة السياسية، لذا نجد أنها الأسلوب الأمثل لوضع الدساتير الحديثة، والطريقة الوحيدة التى تخلق دستورا سليما في نظر فقهاء القانون الدستوري.

وقبل أن يتكلم فقهاء القانون الدستوري عن أسلوب وضع الدستور قام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم باتباع هذا الأسلوب المثالي، فقد جمع أصحابه كما جمع مختلف عناصر الأمة من وثنيين ويهود، وأخذ يقرأ عليهم ما تصوره خليقا بجمع شملهم وتنظيم السلطة السياسية في مدينتهم، وهيأ لهم جميعا تلك العبقرية الفذة التى راحت تتلمس الأسس القويمة التى

تقضى على الفرقة بينهم وتؤمنهم على أموالهم، وأعراضهم وممتلكاتهم، وتقر ما كان سائدا بينهم من أعراف صالحة في إغاثة الملهوف وإعانة المحتاج، وتضيف إليه، وتنزع من نفوسهم الحقد والغل والحسد، وتجمعهم على قلب رجل واحد في مواجهة عدوهم، وبالجملة تضع أسس التعايش السلمي القويم بين فئات ذاقت الكثير من الحروب وفقدان النظام والأمن.

٣- والوثيقة التي نتعرض اليوم لدراستها، هي تلك الوثيقة التي أصدرها الرسول صلى الله عليه وسلم لتحكم العلاقات بين جميع المواطنين في المدينة غداة وصوله إليها مهاجرا، وتعتبر من بداية الأعمال التي قام بها لتاسيس الأمة فيها. وتأتي أهميتها القانونية من أنها حددت من ناحية عناصر قيام الأمة، وعناصر قيام الدولة من ناحية أخرى، فقد وضع الرسول صلى الله عليه وسلم فيها بذور قيام الدولة المسلمة وحدد طبيعة العلاقة بين المسلمين وغيرهم من المواطنين الذين يعيشون معهم في المدينة المنورة، وهم اليهود، كذلك اهتم بتنظيم عنصر السلطة والسيادة في الدولة الناشئة، وحدد معالم هذه السيادة بشكل واضح وجلي، بل نجد هذه الوثيقة، تحدد عنصر الإقليم في الدولة الجديدة، وفي وقت مبكر من التاريخ، الأمر الذى لم يظهر كعامل محدد للدول الحديثة إلا في مرحلة متأخرة، فهي وثيقة دستورية متكاملة بكل معاني الكلمة، لكن قبل أن نمضي في دراسة أهمية الوثيقة، نتعرض لتحديد المفهوم الاصطلاحي للوثائق ونبرز أهميتها في معرفة الحقائق التاريخية.

مدلول الوثيقة وأهميتها:

٤- يقصد بالوثيقة، الورقة الرسمية التي تصدر من إحدى الجهات الرسمية في الدولة، أيا كانت هذه الجهة، ويستوى في ذلك أن تصدر الوثيقة من الدولة كشخص معنوي عام، أو أن تكون قد قامت بين الأشخاص وقامت الدولة بإقرار ما فيها بالتصديق عليه بشكل رسمي. وعلى ذلك فالدستور وثيقة، ومختلف القوانين التي تصدرها الدولة تعد وثيقة، وهي تعبر عن إرادة الدولة كسلطة صاحبة سيادة وسلطان في الجماعة، وتسمي هذه الوثائق وثيقة عامة. كذلك تعد عقود الملكية الموثقة على يد موثق رسمي وثيقة خاصة، وكذا حجج الأوقاف والوصايا.. الخ.

ويشترط في الوثيقة على ذلك مجموعة من الشروط هي:

الكتابة:

وهذا شرط رئيسي، على أن أية كتابة لا ينطبق عليها وصف الوثيقة فيجب أن تكون الوثيقة قد كتبت بمادة لينة. ليستبعد من دائرة الوثائق النقوش وهي الكتابة على الأحجار، والمسكوكات وهي الكتابة على النقود، وإن كان لها أهميتها في البحث التاريخي بشكل عام.

الحفظ:

فيجب أن تكون الوثيقة محفوظة، وتحفظ الوثائق في عصرنا في الأرشيف أو في مكان خاص للحفظ، وقد عرفت العديد من الوسائل في مختلف المراحل التاريخية للدولة الإسلامية، لحفظ الوثائق. وفي العصور الحديثة نقلت العديد من الوثائق الإسلامية إلى العديد من المتاحف، كما يوجد بعضها في قصور الحكام والملوك، وإن كنا نأمل أن تحفظ الوثائق الإسلامية –خاصة تلك الموجودة بدور الكتب والمحفوظات– بالطرق الحديثة حتى تقيها من التلف أو الضياع، ويستخدم التصوير في هذا الغرض الآن "الميكروفيلم".

تضمن الوثيقة لعمل قانوني:

إن الوثيقة يجب أن تحتوي على تصرف قانوني كالبيع والشراء، والاستبدال أو تتضمن حقوقاً وواجبات كالدستور والقوانين واللوائح، وبالجملة يجب أن تتضمن الوثيقة ما يؤثر في أوضاع الأفراد ومراكزهم، وذلك حتى يخرج من نطاق الوثائق الأوراق التي لا تأثير لها على الأفراد أو مراكزهم. من هنا تبدو أهمية الوثيقة، فهي كتابة رسمية تتضمن تصرفا قانونيا موثقا، فهي أدعى إلى التصديق من الروايات أو الكتابات المجردة، كما أن وضع الوثائق الصادرة من الدولة في عصر معين في دائرة الدراسة، يمكننا من معرفة العديد من الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إن تاريخ أية أمة يمكن أن يقرأ من وثائقها بسهولة، وبشكل أقرب إلى الواقعية والصدق، كذا تعد الوثائق في مقدمة المصادر التي يرجع إليها في البحوث العلمية والتاريخية[٤٠].

---

(٤٠) تنبه المؤرخ والعالم العربي ابن خلدون إلى أهمية الوثائق في دراسة التاريخ، ووجوب أن يتصدى من يدرس التاريخ أولا لدراسة الوثائق الرسمية للدولة.

من هنا آليت على نفسي أن أتناول الوثائق المهمة التي صدرت في التاريخ الإسلامي وأن أتعرض لها بالدراسة والتحليل على ضوء متغيرات العصر، والمفاهيم والمصطلحات التي تحدد دراساتنا في العصور الحديثة.

وتنطبق هذه الخصائص على الوثيقة التي نعرضها، فقد وردت بنص واحد لدي ابن اسحق ونقلها عنه ابن هشام في سيرته، ثم نقلها المؤرخون بعد ذلك بصيغتها، وهي وإن لم نعثر عليها محفوظة، إلا أن ابن اسحق من أفاضل رواة السيرة، ولابد أنه عثر عليها بشكل أو بآخر ودونها بنصها في كتابه، حيث نقلها عنه المؤرخون بعد ذلك، وهي تحتوي على حقوق وواجبات أساسية وواضحة؛ لذا تنطبق عليها صفة الوثيقة.

وسوف أتناول نصوص هذه الوثيقة بالتحليل، موضحا في البداية الظروف التي وضعت فيها والتكييف القانوني لها، وسوف أتناول بعد ذلك المقومات الأساسية التي يقوم عليها مجتمع المدينة، حيث سأكتفي بذكر ثلاث مقومات هي: التكافل الاجتماعي، حرية العقيدة، المساواة بين سكان المدينة.

وقبل ذلك سأعرض لنصوص الوثيقة مقسما إياها إلى بنود حيث سوف أشير إلى البند فيما يلي من صفحات الدراسة[٤١].

نص الوثيقة

١ -هذا كتاب من محمد النبي، رسول الله، بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم.

٢ – إنهم أمة واحدة من دون الناس.

٣– المهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(٤١) ورد نص الصحيفة في كل كتب السيرة النبوية بلفظه مثل سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية، كما أوردها ابن عبيد في كتابه الخراج. أما الترقيم إلى بنود فقد استخدمه المحدثون الذين تعرضوا بالدراسة للوثيقة ومنهم محمد حميد الله في مؤلفه مجموعة الوثائق السياسية، عون الشريف قاسم في مؤلفه نشأة الدولة الإسلامية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

٤- وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥- وبنو الحارث بن الخزرج على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالقسط والمعروف بين المؤمنين.

٦- وبنو ساعدة على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧- وبنو جشم على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٨- وبنو النجار على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٩- وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠-وبنو النبيت على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١١-وبنو الأوس على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٢ - وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

١٢ ب- وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

١٣ - وأن المؤمنين المتقين، أيديهم على كل من بغي منهم، أو ابتغي دسيعة ظلم، أو إثما، أو عدوانا، أو فسادا بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم.

١٤- ولا يقتل مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن.

١٥- وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض، دون الناس.

١٦ – وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

١٧ – وإن سلم المؤمنين واحدة، ولا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

١٨ – وإن كل غازية غزت معنا، يعقب بعضها بعضا.

١٩ – وإن المؤمنين يبئ بعضهم عن بعض، بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢٠– وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

٢٠ب– وإن لا يجير مشرك مالا لقريش، ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن.

٢١– وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة، فإنه قود به، إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

٢٢ – وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثا، أو يؤويه. وإن من نصره، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه عدل ولا صرف.

٢٣ – وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد.

٢٤– وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين، ما داموا محاربين.

٢٥ – وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وإثم، فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته.

٢٦ – وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٢٧ – وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف..

٢٨ – وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٢٩ – وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

٣٠ – وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٣١ – وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وإثم، فإنه لا يوقع إلا نفسه، وأهل بيته.

٣٢ – وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

٣٣ – وإن لبني الشطية مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم.

٣٤ – وإن موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٥ – وإن بطانة يهود كأنفسهم.

٣٦– وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.

٣٦ب– وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه وأهل بيته، غلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا.

٣٧ – وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.

٣٧ ب– وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم.

٣٨ – وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٣٩ – وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٤٠ – وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

٤١ – وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

٤٢ – وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

٤٣ – وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

٤٤–وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.

٤٥ –وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه، ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب الدين.

٤٥ ب- على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم.

٤٦-وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم، لا يكسب إلا نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

٤٧-وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن، بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله.

الظروف التى وضعت فيها الوثيقة:

٥- الوثيقة التى نضعها تحت دائرة الضوء اليوم كما ذكرنا من قبل هي إحدى الوثائق التى وضعت مبكرا في التاريخ الإنساني، والتاريخ الإسلامي كذلك، فهي وثيقة في السنة الأولى للهجرة، ومن ثم فإن عمرها يزيد الآن على الأربعة عشر قرنا، ولابد أن نذكر ذلك جيدا، فقد وضعت الوثيقة في فترة تاريخية عرفت العداء بين دولتي العالم الكبيرتين في تلك الفترة، أي دولة الروم ودولة الفرس، العداء الذى لم يرتب أي حقوق للأعداء في سلم أو حرب، أما شبه الجزيرة العربية، فلم تكن بها دولة بالمعني الصحيح، كان بها بعض الإمارات والممالك في الطرف الشمالي، وفيما عدا ذلك، فإنما كانت تعيش في فوضي بالغة، كانت في مرحلة الحياة القبلية بكل ما يدل عليه هذا المعني، وقد وصف القرآن الكريم هذه الحقبة التى عاشها العرب قبل الإسلام، أو في مرحلة الجاهلية كما تسمي تاريخيا، بعبارات موجزة في غاية البلاغة، يقول تعالي (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)(٤٢) فهذه الآية تدل على أن الفساد كان متفشيا في العالم بأسره، وأن الإصلاح والهداية التي قادها الأنبياء، السابقون كانا قد اختفيا تماما، لحلول الوقت وتقادم العهد، مما هوى بأمم الأرض جميعا إلى حال سيئة من الانحلال(٤٣).

لم تكن هناك حكومة مركزية تعزز جانب القانون والنظام في البلاد، وكانت شبه الجزيرة منقسمة إلى مناطق نفوذ لا حصر لها، كل قبيلة تؤلف وحدة سياسية منفصلة ومستقلة، ولكي يمكن لأحد أن ينتزع حقه من الآخر، كان عليه أن يلجأ إلى القوة، حقيقة كان هناك سيد لكل قبيلة، ولكنه كان مستقلا لا يدين بولاء أو طاعة لأية سلطة أخرى.

---

(٤٢) سورة الروم، الآية رقم ٤١

(٤٣) راجع مولاي محمد على، محمد رسول الله، ترجمة عبد الحميد جودة السحار ص١٦.

ويصور وليم موير هذه الحقيقة بقوله "وأشد ما يسترعي النظر هو تفرق العرب إلى قبائل لا حصر لها، تتكلم في أغلبها نفس اللغة، ولكنها متفرقة، ومستقلة كل عن الأخرى، لا تعرف الهدوء والاستقرار، وبالإضافة إلى ذلك، فهم في حروب مستمرة بينهم، لأتفه الأسباب تدب الجفوة، وتثأر العداوة بلا رحمة ولا هوادة".

"ولهذا كانت كل محاولة للاتحاد العام تذهب هباء، وكان لابد من إيجاد حل لهذه الفوضى، وأين القوة التي تستطيع إخضاع هذه القبائل وجذبها إلى نقطة الارتكاز"[٤٤].

لقد أتى محمد صلى الله عليه وسلم وتمت بظهوره المعجزة؛ لذا يؤكد القرآن الكريم هذا المعنى بقوله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا)[٤٥].

وهكذا كان سكان المدينة وقت الهجرة، طائفة المهاجرين الذين تركوا أوطانهم وأموالهم في مكة فارين بدينهم الجديد إلى المدينة. وطائفة الأنصار من القبيلتين الكبيرتان، الخزرج والأوس، ثم من ظلوا على دينهم من القبيلتين، إلى جانب اليهود، وكانت القبيلتان الكبيرتان منهم بني قريظة وبني النضير من موالي الأوس، أما بقيتهم فكانوا فرقا شتى في حماية بطون من القبيلتين الكبيرتين الأوس والخزرج.

أما عن الأحوال السياسية والاقتصادية، فلم تكن هناك حكومة أو حتى شخصية يجتمع السكان إليها، وإن كان يوم بعاث قد أظهر رجلا يدعى "عبد الله بن أبي" لعب دورا بارزا في الأحداث، وكاد ينصب ملكا على المدينة من قبل جميع سكانها، ولكن عطلت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم هذا التنصيب، ثم لغته، مما جعل الرجل وفريق من أتباعه يكنون العداء للإسلام وللرسول صلى الله عليه وسلم، ويتربصون به الدوائر، الأمر الذي وضح فيما بعد، وأنتج طائفة المنافقين.

---

(٤٤) نقلا عن مولاي محمد علي، المرجع السابق ص٢٠.
وراجع في التفصيل: سيرة ابن هشام الجزء الأول ص٣ وما بعدها، البداية والنهاية لابن كثير ج١ ص١٢ وما بعدها، تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ص٤ وما بعدها.
(٤٥) سورة آل عمران، الآية رقم ١٠٣.

ورغم الضعف السياسي والاجتماعي الذي كان عليه يهود، إلا أنه من الثابت أنهم كانوا يسيطرون على الحياة الاقتصادية في المدينة، بل كانوا يتسلطون على الأموال القليلة للسكان بالربا، وهكذا ما كانت المدينة تجد هيئة حاكمة غير تبعية كل قبيلة بأعمال أفرادها، فإذا قتل قتيل دفعت ديته، وإذا نشبت معركة، لم يسرفوا في إهراق الدماء، فإذا فر فريق مهزوم لم يتبعوه إلى مأمنه ليبيدوه أو يجهزوا عليه[٤٦].

التكييف القانوني للوثيقة:

٦- اهتم قلة من مؤرخي السيرة النبوية العرب بهذه الوثيقة، أما غالبيتهم فقد أوردوا نصها فحسب، واعتبروه مجرد موادعة بين النبي صلى الله عليه وسلم واليهود في المدينة.

أما المستشرقون فقد تناولوها بالدراسة واهتموا بها اهتماما بالغا، حتى وصفها أحدهم بأنها هدية من السماء، وأطلق عليها الآخر "صفة دستور المدينة" أو "قانون حياة المجتمع في المدينة" أو "ميثاق العمل الإسلامي".

ونحن نلاحظ أن هذه الوثيقة ليست معاهدة بالمعني الصحيح؛ لأن المعاهدة في الإسلام تكون عادة بين المسلمين وغير المسلمين، في حين أن هذه الوثيقة بين أطراف مسلمة بعضها البعض، كما أن أطرافها غير المسلمين أيضا يسكنون المدينة.

كما أن هذه الوثيقة ليست حديثا من الأحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لذا لوحظ أنها تخلوا من الرواية، ومن ثم فقد رجح العديد من الباحثين أنها وجدت مكتوبة؛ لذا وضعت في كتب السيرة مثل ابن هشام، وابن إسحاق بنصها، إذ إنها لو نقلت بالرواية لذكروا سلسلة الرواة كعادتهم في أيسر الأمور.

وإذا ما رجعنا إلى الأحوال التي كانت سائدة وقت صدور هذه الوثيقة وإلى أطرافها وموضوعها، وإلى الطريقة التي صيغت بها، ومع مراعاة لغة وأسلوب العصر، فإننا نجد أنها كتبت بين الرسول وأهل المدينة لإقامة صيغة للتعايش المشترك بينهم، فهي بلا جدال عقد اجتماعي بالمعني السياسي، لقد وجدت بين الرسول صلي الله عليه وسلم —الذي ارتضاه أهل المدينة كحاكم أعلى بينهم— وبينهم ومن ثم حرصت على النص على أطراف العقد

---

(٤٦) راجع في تفاصيل هذه الحقبة التاريخية: حياة محمد، لمحمد حسين هيكل ص١٩٥، أمين سعيد، نشأة الدولة الإسلامية ص٣١ وما بعدها.

بوضوح وتفصيل كاملين، فقد ذكرت الوثيقة كافة بطون القبيلتين العربيتين، ومن تبع كل منهما من يهود المدينة فضلا عن المهاجرين، وقد استغرق ذكرهم البنود من ١-١١ من الوثيقة.

وليس أدل على وضوح الصيغة التعاقدية من ذكر العبارات الأولى من الوثيقة، إذ بها "هذا كتاب من محمد النبي، رسول الله، بين المؤمنين والمسلمين من قريش، وأهل يثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم". فالوثيقة بينه من ناحية، وبين سكان المدينة بمختلف فئاتهم من ناحية أخرى.

وموضوع العقد إقامة حكومة المدينة، وتحديد مختلف الروابط العامة -على وجه الخصوص- بين هؤلاء السكان.

والمتمعن في بقية النصوص يستخلص كيف اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم ببناء الأمة، أي تحديد الروابط السياسية والاجتماعية والقانونية بين فئة السكان المؤمنين أو المسلمين، وبناء الدولة كذلك. فالرسول صلى الله عليه وسلم رغم إقامته للدولة على أساس العقيدة، فإنه لم يغفل أهمية وضع فئات السكان الأخرى التي تعيش معه في مكان واحد في الدولة الجديدة، في الموضع الذي يجعلهم يتفاعلون معه ويشعرون بالولاء لدولتهم الجديدة، ويؤدون واجبهم نحوها في الذود والدفاع عنها، وصيانة أمنها الداخلي والخارجي، والحفاظ على البناء الأساسي الذي وطده الرسول في يثرب.

كذلك تظهر لنا الوثيقة أهمية عنصر الإقليم في إقامة الدولة، ويدخل في ذلك تحديد هذا الإقليم وتمييزه عن أقاليم الدول الأخرى، ولعله من المفاهيم المبكرة في فن إقامة الدول تحديد الإقليم لبيان حدود السلطة المقامة فيه، والنطاق الذي تسري فيه أوامر السلطة التي أقيمت في المدينة، وما يربط هذه السلطة بفئات الجماعات المجاورة لها.

كذلك تحدد الرسول صلى الله عليه وسلم في وقت مبكر العلاقات التي يجب أن تقوم بين السلطة التي أقامها في المدينة، والوحدات الأخرى ذات الطبيعة الدولية، وكيف أنها علاقات سلم ومهادنة كقاعدة عامة، فيما عدا أعدائه من قريش، هؤلاء الذين ناصبوه العداء وأخرجوه وصحبه من ديارهم وأموالهم، وتتبعوه أينما ذهب هو والفئة المسلمة معه، ليفتنوهم عن دينهم ويعيدوهم إلى حياة الوثنية والجاهلية، فالعلاقات معهم يجب أن تكون علاقة عداء، ومن ثم منع الرسول التعامل معهم أو إجارتهم في المدينة.

وهكذا نجد أنفسنا أمام لجنة تأسيسية هي كل بطون المدينة والمهاجرين إليها، فضلا عن قائدها ونبيها، تضع عقدا اجتماعيا ترسى فيه مبادئ دستورية توضح أساس التعامل بين مختلف فئات المجتمع، وبينهم وبين الجماعات المجاورة لهم، إننا أمام عقد حقيقي لم يفترضه "جون لوك" لينفي حق السلطة في الاستبداد وليجعل من الأمة سيدة حياتها دون حاكمها، عقد صحيح، لم يذهب روسو يحلق في الآفاق ليفسر كيف أن الشعب هو الذي تعاقد مع نفسه ليبني حياة دستورية لا يسود فيها الحاكم إلا بقدر ما أعطاه الشعب في هذا الخيال.

٧- والواقع أن ما تضمنته الوثيقة من مبادئ، إنما كانت بمثابة الخطوط الأساسية التي سارت عليها الدولة بزعامة رسولها؛ لذا فشأنها شأن المبادئ الدستورية تضع الكليات وتترك المجال لأدوات وتشريعات أخرى لكي تضع التفاصيل، تلك التفاصيل التي أولاها الرسول صلى الله عليه وسلم عنايته طوال حياته؛لذا فإن العديد من الأعمال والوثائق اللاحقة من القرآن الكريم والسنة القولية أو الفعلية أو التفسيرية قد تكفلت بوضع هذه التفاصيل وأوضحت المعني الحقيقي للمبادئ التي وردت بالوثيقة، كذلك فإن التحديات العديدة التي واجهت الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يطبق هذه المبادئ، قد ألقت الضوء على العديد من أحكامها. ويؤكد أهمية الأعمال اللاحقة، أن الوحي لم يكن قد اكتمل بعد وقت كتابة الوثيقة، بل ظل ينزل على الرسول حتى وفاته، أي استمر قرابة ثلاثة عشر عاما بعد كتابة هذه الوثيقة، ولاشك أن الوحي قد تضمن أحكاما جديدة وعلم الرسول والمسلمين العديد من الأمور، وحسم لهم العديد من المشاكل التي واجهتهم في المدينة.

على أنه قد أثيرت العديد من المسائل حول هذه الوثيقة والقيمة التي تمثلها في الوقت الحاضر ومن أهم هذه المسائل، مسألة ما إذا كانت الوثيقة قد كُتبت في وقت واحد أم في أوقات مختلفة، وهل تمثل وثيقة واحدة أم أكثر؟

وحدة الوثيقة أم تعددها:

٨- ذهب البعض إلى القول أن الوثيقة لم تكتب في وقت واحد، وعلى مرحلة واحدة بل على مرحلتين وفي وقتين[٤٧].

---

(٤٧) عون الشريف قاسم: نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، دراسة في وثائق العهد النبوي، دار الكتب الإسلامية الطبعة الثانية (١٩٨١)، بيروت ص٢٦.

وأساس هذا الرأي، هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم واجه في البداية القبائل العربية المتفرقة، والعناصر المختلفة والمتباينة للمسلمين معه، فاستهدف توحيدهم في البداية، باعتبارهم العمود الفقري لبناء دولته الجديدة؛ لذلك فإن القسم الأول من الوثيقة والذي يتمثل في البنود من ١-٢٣ يعكس هذه العملية، فالوثيقة هنا تتحدث عن العلاقة بين المسلمين وبين القبائل العربية الموجودة في المدينة من الأوس والخزرج؛ لذا يرجح أنه كتب في البداية، كتعاقد بينهم.

أما القسم الثاني من الوثيقة، فهو يتحدث عن علاقة المسلمين باليهود، ويقيم الأسس المختلفة لهذه العلاقة، ويبدو أنه كتب في مرحلة لاحقة، بل يذهب هذا الرأي إلى أنه "كانت هناك مجموعة من المعاهدات عقدت في فترات مختلفة بين الأطراف المذكورة، تشمل أحيانا فقرات متشابهة، ثم ضمت إلى بعضها البعض في فترة متأخرة، وجمعت في وثيقة واحدة"(٤٨).

ويدعم وجهة نظره بحجة أساسية هي ظاهرة تكرار نفس الالتزامات في نفس الوثيقة، مثل الالتزام الوارد في البند (٢٣) والذي تكرر ذكره في البند(٤٢) بالإضافة إلى أن الرسول واجه -في الواقع- مشكلتين:

المشكلة الأولى:

توحيد القبائل العربية في المدينة، إذ كانت تقوم مقام العمود الفقري للدولة الجديدة، وكانت هذه المهمة مليئة بالمصاعب والمشاكل فلم تكن هذه القبائل قد قبلت الإسلام، إذ استمرت بطون وقبائل بأسرها على وثنيتها، وكانت المرونة السياسية وروح الوفاق لازمتين، إذا كان لمثل هذه الوحدة أن تتم.

أما المشكلة الثانية:

فقد وجدت في وقت لاحق وتمثلت في ضرورة استغلال قوة هذا التجمع القبلي وتكاتفه للتأثير على القسم اليهودي من سكان المدينة بغرض كسب تعاونهم، والاستفادة مما يبذلون من عون لمجابهة أي خطر خارجي والتصدي له كجبهة متماسكة، وروح التسامح والوفاق هي الوسيلة لتحقيق ذلك.

---

(٤٨) يذكر المؤلف أن العقود والمعاهدات التي أوردتها المصادر عن هذه الفترة وما قبلها تتسم بالإيجاز والتحديد، ويستبعد أن يكون المقصود بذلك تأكيدها، المرجع السابق ص٢٦.

إذن: الاتفاق بين المهاجرين والأنصار تم في المرحلة الأولى، ثم جاء الاتفاق مع اليهود في مرحلة متأخرة، مما يؤكد على حقيقة أن الوثيقة لم تكتب في وقت واحد وليست وثيقة واحدة.

ونحن نري أنه من الصعب إقرار هذا الرأي، ففضلا عن ورود الوثيقة بنصها بشكل متكامل في كتب السيرة، نجد أن الحاجة إلى العمليتين التي يشير إليهما الرأي الأول قد وجدتا في وقت مبكر، ومنذ وصول الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فالأعداء كانوا قد تربصوا لقتله، وقد هاجر إلى المدينة والسيوف تلاحقه، فليس من المعقول –وهو يضع البناء الدستوري والسياسي لدولته الجديدة أن يترك العناصر الأساسية التي يمكن أن تعاديه وهم اليهود وغير المسلمين– دون أن يوضح العلاقة الأساسية بينهم وبين العناصر التي اتبعت الرسول صلى الله عليه وسلم من سكان المدينة، أما ظاهرة تكرار نفس الالتزامات في نص الوثيقة، فهي لتأكيد المعني المهم الذي عبرت عنه، خاصة أن التكرار جاء للفكرة التي تضع السلطة بيد الرسول، سواء بالنسبة للمسلمين، أو بالنسبة لغيرهم من سكان المدينة.

كذلك نجد الصيغة والعبارات التي وضعت به الوثيقة واحدة، بحيث يصعب الفصل بينها واعتبار أنها وضعت في تواريخ منفصلة.

وأخيرا فإن القول بتعدد أجزاء الوثيقة، قد جاء على سبيل الافتراض الذي يخلو من أي دليل تاريخي أو واقعي.

الفرع الأول
عناصر بناء الدولة في المدينة

٩- تقوم الدولة الحديثة إذا ما توافر لها عناصر ثلاثة: شعب، إقليم، سلطة، وبدون هذه العناصر لا يمكن أن تقوم الدولة، فيجب أن يكون هناك مجموعة من الناس على قدر معين من التجانس، يعيشون على إقليم واحد وتظلهم سلطة سياسية تنظمهم وتحكمهم(٤٩).

وعلى أي وضع وفي أي تاريخ، لا يمكن أن نتصور الدولة إلا بهذا الحد الأدنى من العناصر الأساسية لبناء الدول.

ومع ذلك فإن قوة الدولة وضعفها، وتقدمها وتأخرها، إنما تعتمد على عناصر أخرى، أهمها مدى تفوق السكان، والكم ليس هو العنصر الحاسم في هذا الصدد، بل الكيف هو الأهم، وقد كشفت تجربة الإسلام عن أهمية الكيف هذه، إذ غلبت قلة من الأفراد المتميزين في أخوتهم وعقيدتهم، كثرة ساحقة ذات حضارات أقدم وتجارب أوسع، ووجدت هذه القلة أسباب التقدم العلمي والاقتصادي والثقافي باتحادهم وتعاونهم(٥٠).

من هنا فإذا كان يكفي لوجود الدولة أن توجد جماعة بشرية كافية فإن الدول تعطي أهمية كبيرة لضرورة وجود قدر من الانسجام والتجانس في هذه الجماعة، أي أن تكون "أمة".

والأمة تعني اصطلاحا "جمع من الناس يرتبطون بروابط مشتركة من وحدة الجنس والدين واللغة والعادات".

ومما لاشك فيه أن الدولة التي تقوم على أمة واحدة هي أفضل من الدولة التي تحتوي أكثر من أمة، كما أنه من الواجب أن تضم الأمة الواحدة دولة واحدة، لا أن تُوزع الأمة الواحدة على أكثر من دولة، من هنا كانت دعاوى تقرير المصير، وكانت الوثائق الدولية الحديثة حريصة على أن تكفل هذا الحق لكل أمة لم تنل حقها في تكوين دولة أو الانفصال عن دولة أو الاتحاد مع دولة أخري(٥١).

---

(٤٩) حامد سلطان، عائشة راتب، صلاح عامر، القانون الدولي العام، الطبعة الأولى(١٩٧٨م).
(٥٠) حامد ربيع، البترول والسياسة في العالم العربي، المقدمة.
(٥١) جعفر عبد السلام، المنظمات الدولية طبعة ١٩٨٤ ص٢٨٧.

وتشهد على أرض يثرب عملية بناء ضخم، تمت في العام الأول للهجرة فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبحث عن إقليم الدولة، الإقليم الذي يأوي إليه لكي يتمكن من نشر دعوة الإسلام، وبناء الأمة الإسلامية، وإظهار كلمة الله في الأرض، فلقد أقسم على ذلك من قبل عندما عرض عليه سادة قريش أن يكون أكثرهم مالا أو أعزهم جاها، فقال "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه".

وجد الرسول صلى الله عليه وسلم ضالته في المدينة بعد أن استحالت إقامته وإمكان نشر دعوته بمكة؛ لذا اهتم بأمر هذا الإقليم، فحدده وجعله حرما آمنا لمن يأوي إليه، كما أقامه أهل يثرب سلطانا دنيويا إلى جانب كونه الزعيم الديني والنبي المرسل لهم، ومن ثم تولى شئون دينهم ودنياهم في هذا الوادي الجديد، وإذا ما تتبعنا حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة نجده قد اهتم بالنسبة للعوامل الدينية بما يلي: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وضع الوثيقة التي نتحدث عنها وهي وثيقة دستور المدينة، بناء المسجد الذي اعتبر وحدة دينية واجتماعية وسياسية في نفس الوقت، فرض الأذان وصلاة الجماعة.

من هنا كانت الأهمية الفائقة لهذه الوثيقة، إذ بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم أعمال التنظيم والتشريع بها، فقد تضمنت وضع اللبنات الأساسية لبناء المجتمع الإسلامي، ولتحديد علاقة المسلمين بغيرهم ممن يعيشون معهم في المدينة، ثم علاقة الدولة الإسلامية بالدول الأخرى، أو إذا شئنا الدقة بالجماعات الأخرى الموجودة خارج المدينة، وخاصة قريش.

وقبل المضي في دراسة ما قررته هذه الوثيقة في شئون إقامة الدولة نود أن نشير إلى أن هذه الوثيقة هي أولى الوثائق التي أعلنها الرسول صلى الله عليه وسلم لتنظيم الدولة، قبل الغزوات والفتح، وانتشار الإسلام؛ لذا فإن أحكامها أقرب إلى القواعد العامة، ونرجح أن بعض المبادئ التي تضمنتها قد تغيرت على ضوء المسيرة الواسعة للدعوة الإسلامية، وسنشير إلى ذلك عند عرضنا لهذه المبادئ، لكن تبقي العديد من المبادئ التي أسستها قائمة، كما أن لها دائما ولايتها على فن تأسيس الدول، وأسس إقامة الروابط بين الجماعات المتنافرة، وجمعها على كلمة واحدة، وتحويلها —في زمن قياسي— من الفرقة والتشتت إلى الوحدة والتجمع، ومن الضعف والتمزق إلى القوة والتآزر.

المطلب الأول
إقليم الدولة الإسلامية

١٠- اختار الله مدينة يثرب لتكون الإقليم الأول للدولة الإسلامية. ويبدو أن ظروفها الجغرافية والبشرية والسياسية كانت تؤهلها تماما لهذه المهمة، فهي قريبة من مكة بشكل يسهل بعد ذلك نشر الدعوة في العالم باعتبار مكة في وسط العالم تقريبا، وموضع تقديس جماعات كثيرة.

من ناحية أخرى، فلقد كان سكان يثرب يعيشون على الزراعة، وقليل من التجارة، ومن المعروف أن السكان الذين يمارسون الزراعة أكثر إيمانا بقوى الغيب من غيرهم، كما أنهم أقبل لأفكار التنظيم والالتفاف حول حكومة مركزية.

والواقع أن فكرة الدولة قد تأخرت في الجزيرة العربية كثيرا، إذ إن مصر وبلاد ما بين النهرين كان قد وجد فيها دول تعتمد على الإقليم منذ وقت بعيد، وإذ لم يتمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من تغيير الوضع البدائي لمكة، فإنه يمم شطر المدينة، بعد أن بايعه بعض أهلها، وأرسل إليها بعض أصحابه.

١١- كانت يثرب مدينة صغرى لا يوجد بها نظام ولا دولة، كانت تعيش فيها قبائل تتقاتل مع بعضها، مثل آلاف البلدان التي ما برز فيها فكر ولا انتصر فيها دين، ولكنها تغيرت فجأة، حيث دخلتها روح جديدة وبعبارة أخرى، لقد دخلها محمد صلى الله عليه وسلم بروح المدينة(٥٢).

إن أكواخ المدينة وأطامها ووديانها وجبالها لم تكن تزيد عن أي بلد آخر فيه جماعة من الناس، غير أن اجتماع الكوخ إلى الكوخ والجدار إلى الجدار والبيت إلى البيت والأطم إلى الأطم يخلق كائنا جديدا وشخصية جديدة غير التي تفاد من هذه المفردات منفصلة من بعضها البعض وتكون لها كيان وذاتية وهيئة خاصة وسمة روحية، فتبدأ حياة جديدة تجعل أحد أهلها يقول "البلد يريد كذا ويقصد كذا"، فكأنه يتكلم بلسان الجماعة، وكأنه تفحص شخصية البلد(٥٣).

---

(٥٢) راجع جمال حمدان، شخصية مصر الجزء الثاني، عالم الكتب القاهرة (١٩٨١).
(٥٣) محمد لطفي جمعة، ثورة الإسلام وبطل الأنبياء، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى (١٩٥٨).

ورغم أن البعض يرى أن فكرة الإقليم لم تظهر أهميتها إلا في مرحلة متقدمة من التاريخ الإسلامي حيث رتب الفقهاء آثارا مهمة على دار الإسلام ودار الحرب، إلا أننا نرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اهتم بفكرة إقليم الدولة، ورتب عليه منذ البداية، وفي الوثيقة التي نقدمها للشرح الآن، العديد من الأحكام.

١٢- فقد ورد بالوثيقة أن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، ويبدو أهمية هذا إذا أخذنا في اعتبارنا تاريخ المدينة، فقد كان تاريخا دمويا، شهد حروبا متوالية، فقد أفنى يهود العمالقة سكان المدينة الأصليين، وتقاتل الأوس والخزرج بشدة، قتالا دام عشر سنوات متصلة، وشهد مآس دموية كالذي عرفت في يوم بعاث.

لذا كانت أهمية تحريم جوف المدينة، أي تحريم قتل الأنفس ونهب الأموال، بل تحريم قطع الشجر وقتل الطير، إن المأثور في ذلك أن الله حرم مكة، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرم المدينة أي جعلها حرما آمنا لكل مخلوقات الله.

ويروى أن رجلا قدم من مكة فسألته عائشة في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم كيف تركت مكة فذكر من أوصافها الحسنة ما غرغرت منه عينا الرسول، وقال للقادم لا تشوقنا ودع القلوب تفر، ودعا " اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وأشد، وبارك لنا في مدها وصاعها وصححها لنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك دعاك لمكة، وأنا عبدك ونبيك أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه".

وقد استجاب الله لدعاء رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فقد صارت المدينة أعظم موطن للإسلام وأكبر عاصمة تمت منها فتوحاته الكبرى، صارت مدينة قوية فوق الممالك وسرى فيها نور الدعوة والهداية قويًا وضَّاءً لينير بقاع كثيرة من العالم.

وإذا كانت فكرة تحديد التخوم ووضع ما يميز إقليم دولة عن أخرى، فكرة حديثة العهد نسبيا، إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اهتدى إليها، فقد ورد في بعض المراجع أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل بعض أصحابه لكي يضعوا أعلاما على حدود حرم

المدينة بين لابتيها شرقا وغربا وبين جبل ثور في الشمال، وجبل عير في الجنوب، ووادي العقيق داخل الحرم[٥٤].

١٣- كذلك نلحظ في العديد من البنود التي وردت بالوثيقة، ترتيب أحكام على اتخاذ المدينة إقليم الدولة الإسلامية. من ذلك ما جاء بالبند (٤٤) من التزام على كافة السكان من المسلمين ويهود ومشركين الذين اشتركوا في الصحيفة بالدفاع عن المدينة إذ ذكرت "وإن بينهم النصر على من دهم يثرب"، وفي البند (٤٧) الذي فرض الأمان لكل السكان إذ ورد به "إن من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم".

وأخيراً فقد فرض الرسول صلى الله عليه وسلم تدبير أمن مهم في ظل ظروف الحرب بينه وبين قريش وإخراجه من بلده، إذ خشى من تسرب أخباره إليها مما قد ينتج عنه أضرار كبيرة بالدولة والدعوة الإسلامية، فقد اشترط في البند (٣٦) من الوثيقة "أنه لا يخرج منهم واحد —وسيرد أن المقصود هنا المسلمون واليهود والمشركون- إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم".

هذا الذي قررته الوثيقة بأهمية اتحاد إقليم محدد تقوم عليه الدولة الإسلامية، خاصة في سنواتها الأولى، ويظهر سبقا فريدا في بيان أهمية تحديد إقليم الدولة.

---

(٥٤) محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص١٥ وما بعدها، ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، ص٣٥، هامش ٢٧.

المطلب الثاني
السلطة والسيادة

١٤-ليس من هدفنا أن ندخل في خلاف فقهي ظهر حديثا حول السيادة في الدولة الإسلامية، ومتى بدأت تظهر، وهل الرسول أوجد حكومة أم لا؟؛ لأن هدفنا من الدراسة التي نقدمها اليوم، يقتصر على تحليل نصوص الوثيقة، ودلالات معانيها أساسا.

ومع ذلك فلسنا في حاجة إلى بذل جهد عقلي كبير لكي نستخلص أن هذه الوثيقة بمفردها تقيم السلطة أو الحكومة الإسلامية وتضعها بيد الرسول صلى الله عليه وسلم، لقد نصت الوثيقة على تكوين أمة واحدة من الناس، ووضعت حقوقا والتزامات متبادلة على عاتق أفراد هذه الأمة، وأرست قواعد في التعامل في الجرائم والديات ودخول المدينة والخروج منها، بل تقدمت إلى الحديث عن الجهاد والالتزام بالإنفاق والأمن المتبادل.. الخ فهل يعنى ذلك ألا إقامة سلطة وتنظيم آمر؟

بالإضافة إلى ذلك فإن تحليلنا لبعض النصوص يوصلنا إلى السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية، ولمن تكون.

١٥-نقرأ البند (٤٢) حيث يقول "إنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث[٥٥] واشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد صلى الله عليه وسلم، وإن الله على اتقي ما في الصحيفة وأبر"، كذلك نص البند (٢٣) الذي يقول "وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد". فهذه هي سلطة الفصل في المنازعات بين أهل الوثيقة من مسلمين ويهود وكفار، ثابتة بشكل منفرد للرسول صلى الله عليه وسلم، بمعني آخر، تكل الوثيقة السلطة القضائية بكاملها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

١٦- أما السلطة التنفيذية، فواضح أنها بيد الرسول صلى الله عليه وسلم، ويكفي أن نذكر هنا البند الذي يجعل الخروج من المدينة بإذنه صلى الله عليه وسلم، والبند الذي يحرم جوف المدينة.

١٧- أما عن السلطة التشريعية فإنها لا تثبت في معني تشريع الأحكام ابتداء- إلا إلى الله جل جلاله، فالوحي ينزل بالأحكام التي يسير عليها المسلمون طوال فترة حياة الرسول (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى)[٥٦]، ولا يتصور أن يضع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأحكام التنظيمية الواسعة إلا إذا كانت له هذه السلطة، فوضع الصحيفة والقواعد التي تضمنتها، إنما يكشف عن سلطة تشريعية واسعة بهذا المعني.

---

(٥٥) الحدث هو الأمر المنكر، ويقصد به هنا القتل.

(٥٦) سورة النجم، الآية رقم ٣.

المطلب الثالث

عنصر الشعب

١٨- تقوم الدول الحديثة على وجود الشعب. وشعب الدولة هم الأفراد الذين يرتبطون برابطة سياسية وقانونية، ونظر إليهم -بوصفهم عنصرا في تكوين الدولة- على أنها وحدة واحدة- فكما أن الدولة إقليما واحدا، فإن لها شعبا واحدا.

ووحدة شعب الدولة، وحدة قانونية وليست لزاما وحدة طبيعية؛ لأنها تنشأ عن وحدة النظام القانوني المشروع بالنسبة للأفراد المكونين لهذا الشعب، ومن ثم فإن هذا الشعب يعتبر وحدة قانونية ولو ضم أفرادا من أصل مختلف يتكلمون لغات متباينة ويدينون بأديان مختلفة.

ويعتبر الفرد من شعب الدولة إذا أدرج ضمن النطاق الشخصي لمشروعية نظامها القانوني، ويحدد القانون الدولي مدى هذا النطاق الشخصي بطريقة غير مباشرة، أي عن طريق تحديد إقليم الدولة[٥٧]

١٩- ولا شك في أنه كلما كان الشعب يمثل وحدة طبيعية كلما أدى ذلك إلى تفوقه وإلى جعل الدولة التي يكونها قوية ومتقدمة، والعكس صحيح، فالوحدة القانونية وحدها ليست كافية لجعل الشعب قويا متجانسا، بل يجب أن يشمل إقليم الدولة شعبا متجانسا، أي أمة، وهو أمر قد يبدو صعبا خاصة في بداية تأسيس الدول. ويكشف لنا عن ذلك فوستيل دي مولانج صاحب المؤلف المهم "المدينة العتيقة" فهو يقول: "لا ينبغي أن نجهل أن الشعوب الفطرية تحاول أمرا معضلا إذا أرادت إنشاء جماعات منظمة، وأنه ليس من الهين إنشاء صلة اجتماعية بين مخلوقات شديدة التفرق، كثيرة التقلب، مغالية في الحرية، ولابد لجمع كلمتها، وتأسيس قواعد عامة فيها، وتعويدها على السمع والطاعة لأميرها، وإذلال هواها لعقلها، وعقل فردها لعقل جمهورها، من شيء أقوى من القوة وأجل من المنفعة، وأوثق من المذاهب الفلسفية، وأثبت من العقود الملزمة، شيء يصل إلى كل قلب ويأخذ بكل شغاف[٥٨]".

---

(٥٧) محمد طلعت الغنيمي في الوسيط في قانون الإسلام منشأة المعارف (١٩٨٢) ص ٣٣١.

(٥٨) راجع ترجمة هذا الكتاب لعباس بيومي والدواخلي ص١٣٨. ويقول الأستاذ الدكتور/ محمد طلعت الغنيمي في هذا المعنى أنه (لا جدال في أن الصفات الطبيعية للشعب وكثافته وأصله، كل ذلك يساهم في تحويل مجموع الأفراد البدائيين إلى جماعة متمازجة، ولذلك فإن هناك عنصرا إراديا في صيرورة الشعب جماعة)، المرجع السابق ص٢٣١.

وهكذا كانت المشكلة صعبة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم فليس الأمر يتصل بجماعات متنافرة لم تتعود على الخضوع لسلطة أو الالتفاف حول شخص فقط، بل إن الأمر يتصل بعناصر غير متجانسة وبقوم غير قومه، ومنهم يهود ووثنيون، ومنهم أيضا المسلمون المهاجرين من مكة، ومن الأنصار أهل المدينة.

فماذا حدث في المدينة؟

٢٠- لقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم بعملية من أهم العمليات التي جرت في العالم، وهي عملية المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وجعلهم أمة واحدة من دون الناس، ثم كتابة هذه الوثيقة التي أوضحت الحقوق والواجبات المتبادلة بينهم من ناحية، وطبيعة العلاقة بينهم وبين العناصر الأخرى التي يتشكل منها شعب المدينة من ناحية أخرى.

بعبارة أخرى أقام الرسول صلى الله عليه وسلم العلاقات بين المسلمين على أساس الإخاء والتكافل الاجتماعي، ثم وادع اليهود وعمل على ترغيبهم على الدخول في الدين الجديد، باعتبار أنهم أصحاب كتاب، وأنه خاتم المرسلين والأنبياء، ويبدو أنهم كانوا يتطلعون إلى مبعث نبي جديد في هذه الفترة كانت العلاقات بينهم وبينه في هذه الفترة في أزهى صورها. وجلسوا إليه في فناء منزل (دمنة بن الحارث) في ظلال النخيل وهو يقرأ عليهم الصحيفة.

لذا قد يكون من المناسب أن نعرض لما جاء بهذه الصحيفة بخصوص العلاقة بين المسلمين بعضهم البعض، ثم علاقتهم باليهود باعتبار وجودهم معه في إقليم واحد، هو يثرب.

كما أنه قد يكون من الأهمية بمكان أن نفرق بين ما إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطى اعتبارا لوجود عناصر وثنية مشركة بين سكان المدينة، وما هي حقوقهم وواجباتهم قِبل الرسول ومن معه.

أولا: العلاقة بين المسلمين:

٢١- لا شك أن الوثيقة تعد نقطة بدء في عملية مهمة، تُعد من أهم أحداث التاريخ؛ لأنها عملية بناء للرجال، وهي أشد أعمال البناء على الإطلاق. لقد تعب الفلاسفة والحكماء وهم يتصورون مجتمعا مثاليا يقوم على التآلف والتآخي بين أفراده فما نجحوا سوى

في الكتابة والتصور، أما خلق أمة متجانسة قوية، وتأسيس جماعة بهذه الروح التي عجب منها كافة من تصدى للكتابة في التاريخ الإسلامي، فهو أمر خص الله سبحانه وتعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم.

فماذا جاء بالوثيقة بهذا الخصوص، وكيف كون الرسول صلى الله عليه وسلم شعب دولته؟

جاء البند الأول من الوثيقة يقول:

"هذا كتاب محمد النبي، رسول الله، بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم.. إنهم أمة واحدة من دون الناس".

وتعني الأمة "الجماعة"، وهي تعني أيضا الطريقة والدين. يقال فلان لا أمة له، أي لا دين له ولا نحلة. يقول سبحانه وتعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ)[٥٩] أي كنتم خير أهل دين.

فهذا البند يُبين بوضوح أساس الرابطة بين شعب الدولة الإسلامية، فهو الإسلام والإيمان، ثم الصلة العفوية بالنسبة لغير المسلمين، والذي عبَّرت الوثيقة عنه بقولها: (ومن تبعهم فلحق بهم).

وتبدو أهمية هذه الرابطة إذا ما تذكرنا الرابطة التي كانت تربط بينهم من قبل. لقد كانت رابطة القبيلة بكل ما يترتب على ذلك من آثار وأهمها التفاخر والأنساب، والنصرة في الحق والباطل، وعدم الخضوع لسلطة أو نظام. لقد كانت الهمجية تسيطر عليهم، وكان خلافا هينا على أي أمر كفيل بإشعال حرب مستمرة وإقامة عداوة مستحكمة، وثأرا يتوارثه الخلف عن السلف. لذلك وصفت الحقبة التي عاش فيها العرب قبل الإسلام بالجاهلية، وليس المقصود بالجهل هنا عدم العلم، بل عدم الحلم. ونذكر هنا بيتا شهيرا في معلقة عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا[٦٠]

---

(٥٩) سورة آل عمران، الآية رقم ١١٠.

(٦٠) تبدو روح الجاهلية واضحة في هذه القصيدة، من ذلك الأبيات التي تقول:

بغاة ظالمين وما ظلمنا ولكن سنبدأ ظالمينا
ونشرب أن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا
إذا شب الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

لذا غير الدين الإسلامي هذه الرابطة القبلية، وأبدلها برابطة دينية، قوامها المساواة بين كل الناس، وعدم التمييز بينهم بسبب الجنس أو اللون، أو الدين أساسا لتحديد أمور في الدولة الجديدة.

بعبارة أخرى، لم يعتبر الإسلام في تكوين الدولة الجديدة، الجنسية، أو العنصرية ولا حتى التوطن في بلد معين، وإنما وحد بين الجميع بالفكرة أو العقيدة التي يعتنقها الكل عن رضا وإيمان. وهكذا أسس الرسول صلى الله عليه وسلم الدولة على رابطة الأخوة الدينية، وقررت الأخوة الدينية بين المسلمين على أنها شأن طبيعي من شئون المؤمنين يتحقق من تلقاء نفسه بمجرد الإيمان ويستتبع جميع آثاره من حقوق وواجبات. وقد غلبت أخوة الإيمان كل صلة سواها حتى صلة النسب فنسى المرء بها قبيلته، وخرج على عشيرته، وخاصم الولد أباه، وقاتل الأخ أخاه. ويقول سبحانه وتعالى في ذلك (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ)[٦١]. كما اصطلح بها المتخاصمون واجتمع عليها المتفرقون، فنسيت عدوات الجاهلية، وأهدرت دماؤها وتراثها، وأصبح المرء يجلس آمنا مطمئنا في ملأ أو خلوة مع من قتل أباه أو أخاه وهو لا يخشى انتقامه، ولا يتوقع أذاه[٦٢].

٢٢- كذلك كان شأن العقيدة الإسلامية في العرب، فقد ظهر الإسلام في عنفوان تلك البعثة النفسية، فأصاب بدعوته شاكلة القلوب، ودانت له العرب، فأصلح بينهم، وجمع كلمتهم، وحينئذ نفروا من البادية وانتشروا في أقطار الأرض، تنقاد لهم أعنة الأمم انقيادا يشبه المعجزات، وأخرجوا للناس على حين غرة، عددا كبيرا من الرجال الأكابر ومشاهير القادة ومؤسسي الملك[٦٣].

الإخاء الإسلامي:

٢٣- حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تحقيق ما جاء بهذه الصحيفة من أن المسلمين أمة واحدة وعمل في سبيل ذلك بجهد كبير.

---

(٦١) سورة المجادلة، الآية رقم٢٢

(٦٢) الشيخ محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، الطبعة الثامنة دار الشروق، القاهرة (١٩٧٥) ص٤٣٤.

(٦٣) نجيب الأرمنازي، الشرع الدولي في الإسلام، دمشق (١٩٣٠) ص١١.

فقد حارب محمد صلى الله عليه وسلم العصبية الجاهلية وقال: (ليس منا من دعا إلى العصبية)، واعتبرها نعرة جاهلية، وقد بلغه أن بعض أصحابه عير آخر بأبيه، فقال عليه الصلاة والسلام له: (إنك امرؤ فيك جاهلية)، وردا على سؤال لأحد أصحابه يقول فيه: أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ فقال صلى الله عليه وسلم مفرقا بين المحبة والتعصب القبلي: (ليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، إنما العصبية أن يعين قومه على الظلم).

ونقرأ في ذلك كلمات لأستاذنا/ الشيخ أبو زهرة يقول فيها:

"إن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان وهو يعمل على إنشاء المدينة الفاضلة التي كانت الصورة المثالية التي كان يحلم بها الفلاسفة ولم يجدوها ولم يستطعوا تحقيقها، رأي المسلمين قبائل شتى، وأن العصبية لها بقايا في نفوس بعضهم، فألف بينهم بعقد، سمي في التاريخ الإسلامي بالإخاء، فجعل كل رجل أخا لرجل يشاطره ماله وعيشه من غير أن تزول الملكية، بل هو بمقتضى الأخوة الإسلامية يعطى أخاه طيبة نفسه راضيا: فآخى بين المهاجرين والأنصار، وآخى بين الأنصار بعضهم البعض[٦٤]."

إن هذا الإخاء عملية فريدة في التاريخ الإنساني كله، والغريب أنها تمت بشكل قانوني، لقد دعا الرسول أصحابه من المهاجرين والأنصار، وأخذ يؤاخي بينهم كل باسمه، ولم يستثن نفسه من القاعدة فآخى بينه وبين علي ابن أبي طالب، واتخذ هذا العمل الشكل التعاقدي[٦٥].

إن هذا العمل جعل من أهم معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم إقامة تلك الأمة الواحدة المتجانسة، ربما كظاهرة فريدة في العالم كله، فقد تمكن صلى الله عليه وسلم في خلال ثلاثة عشر عاما أن يهدي ثلاثمائة مؤمن ومؤمنة إلى الصراط المستقيم، رغم الاضطهاد والقسوة التي لقيها من أعدائه، لقد نفث في صحابته من روحه القوية، فأوجد ثلاثمائة روح قوية فتية، لم تتزعزع ثقتها فيه لحظة واحدة، ووقفت إلى جانبه على الرغم مما ذاقت من صنوف العذاب، وفضلوا ترك الديار وركوب الصعاب، وفراق الأهل على تركه والتخلي عنه.

---

(٦٤) الشيخ محمد أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، منشور بأعمال المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية عام ١٩٦٣ ص١٤٠.

(٦٥) نقلا عن مولاي محمد علي، محمد رسول الله، ترجمة عبد الحميد جودة السحار ص٩٠.

يقول السير وليم موير المعروف بهجومه على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى الإسلام واصفا هذه الظاهرة الفريدة فى تكوين البشر: (فى وقت قصير كهذا انقسمت مكة حزبين متعادين بسبب ما جاء به محمد فانمحت الفوارق القديمة الأصل، الموروثة، فواصل العصبية و القبيلة، وأصبح هناك مؤمن وغير مؤمن وكان المؤمنون يتحملون صنوف الأذى والاضطهاد بصبر عجيب، مفضلين الأذى على ترك دينهم العزيز، لقد تركوا الديار والخلان والأموال ويمموا شطر الحبشة حتى تمر العاصفة، ثم تركوا مع النبى بلدهم الذى يحبونه حتى الجنون تركوا كل هذا وهاجروا إلى المدينة...)[٦٦].

وفى المدينة حدثت نفس المعجزة بشكل أقوى، لقد تصالحت قبيلتي الأوس والخزرج تحت لواء العقيدة الجديدة.

ولم تعد تلك الحروب المدمرة التى ظلت ردحا طويلا من الزمان تحدث بينهم، وتمت كذلك عملية هي تاريخية عملية المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

٢٤- والواقع أن أغلبية المهاجرين مع الرسول، كانوا يعيشون في مكة في بحبوحة من العيش، وها هم قد غادروا ديارهم ووفدوا ضيوفا على المدينة، فآخى النبي بينهم وبين الأنصار إخاءً فريداً في تاريخ العالم، إخاء وفاء وإخلاص، وأصبح لكل رجل من الأنصار أخ من المهاجرين يشاطره داره وماله وإبله وتجارته، وفي رأي كثير من المحللين، كانت روابط الأخوة الجديدة أوثق من الأخوة الحقيقية التي تقوم على رابطة الدم، وقد كان الرجل إذا مات، يرثه أخوه في العقيدة لا في الدم، حتى حرم الله ذلك في قوله تعالى: (وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ)[٦٧]، لقد استجاب المهاجرون والأنصار لدعوة الرسول للتآخى بينهم ومنذ ذلك اليوم أصبح كل مدني له أخ مكي.

ومن العبث أن نحاول التعبير بالألفاظ عن مقدار ما وصلت إليه من الإخلاص والسمو تلك الأخوة في الله، تلك الأخوة التي فاقت أخوة الدم لأنها دينية سماوية، فكل تلك القلوب

---

(٦٦) آيتين دينية، ليمان بن إبراهيم، محمد رسول الله، ترجمة د.عبد الحليم محمود، دار المعارف (١٩٦٦) ص١١٨٢.

(٦٧) سورة الأنفال، الآية رقم ٧٥.

التي تآخت في حب الله لم تعد إلا قلبا واحدا قويا يخفق في صدور عديدة، كان كل أخ يحب لأخيه أكثر مما يحبه لنفسه[٦٨].

لذا وصف المولى جل شأنه هذه الوحدة في محكم آياته فقال تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)[٦٩].

ودعاهم إلى التمسك بهذه الوحدة بشدة وعدم التفريط فيها فى العديد من الآيات كقوله تعالى ((وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)[٧٠].

((وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[٧١]، (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا)[٧٢]، (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)[٧٣].

كما أشار الله سبحانه وتعالى إلى تعدى هذه الظاهرة لحدود القدرة الإنسانية وإلى الطابع الإلهي فيها في أكثر من آية من ذلك قوله تعالى:(هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[٧٤].

وقد عنى القرآن الكريم في آيات أخرى بالثناء على عناصر الأمة المسلمة بعد أن تم لها عملية المؤاخاة من ذلك قوله تعالى (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا

---

(٦٨) من بين الأسر الأخوية نذكر أخوة أبي بكر وخارجة بن زيد، وأخوة عمر وعثمان بن مالك، وأخوة عثمان بن عفان وابن النجار، وأخوة أبي عبيدة وسعد بن معاذ.

(٦٩) سورة الفتح، الآية ٢٩.

(٧٠) سورة الأنفال، الآية ٤٦.

(٧١) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

(٧٢) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

(٧٣) سورة الأنفال، الآية ٧٢.

(٧٤) سورة الأنفال، الآيتين ٦٢-٦٣.

الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا)[٧٥]

٢٥- والواقع أن هذا الإخاء هو أهم ما شد انتباه كل من كتب عن الإسلام وعن رسوله، فهذا توماس أرنولد يصور هذه الظاهرة بقوله: "وقد جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل في نظام سياسي واحد، ذلك النظام الذي سرت مزاياه في سرعة تبعث على الإعجاب، وإن فكرة واحدة كبرى هي التي حققت هذه النتيجة، تلك هي مبدأ الحياة القومية في جزيرة العرب الوثنية".

وهكذا كان النظام القبلي لأول مرة وإن لم يقض عليه نهائيا شيئا ثانويا بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية، وتلك المهمة الضخمة بالنجاح، فلما انتقل محمد إلى جوار ربه، كانت السكينة ترفرف على أكثر جزء من شبه الجزيرة العربية بصورة لم تكن القبائل العربية تعرفها من قبل، مع شدة تعلقها بالتدمير وأخذها بالثأر وكان الدين الإسلامي هو الذي مهد السبيل لهذا الائتلاف.

كذلك أوضح الدكتور/ حسن إبراهيم أهمية هذه العملية بقوله: "كان من أظهر آثار الإسلام أنه آخى بين المسلمين على اختلاف قبائلهم ومراتبهم، وأحل الوحدة الوطنية محل الوحدة القومية، فأصبحوا متساوين جميعا، لا فرق بين السيد والعبد، وغدوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وقد منَّ الله على المسلمين بقوله:

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[٧٦].

كذلك أوضح أن الوثيقة التي عرضناها قد وحَّدت بين جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، واستطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل منهم أمة واحدة ألَّف

---

(٧٥) سورة الحشر، الآيات ٨، ٩، ١٠.

(٧٦) سورة الأنفال، الآيتين ٦٢، ٦٣.

الإسلام بين قلوبها، وأوجد التعاون والتضامن بين أفراد هذه الجماعة، على أساس أن الزمالة في الدين متقدمة على غيرها من الصلات حتى صلة القرابة.

٢٦-ولعل ذلك هو ما يفسر حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الوحدة الوطنية وتحمله الكثير -هو شخصيا- في سبيل صيانتها وبقائها، ونذكر هنا حادثتين فحسب للدلالة على هذا الحرص:

الحادثة الأولى:

جرت بعد غزوة حنين، فطبقا لقواعد الأنفال، أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم لسادات قريش من مال الغنيمة، فأدي ذلك إلى تهامس الأنصار، وجعلوا يتحدثون إلى بعضهم البعض، وقال بعضهم (لقي والله رسول الله قومه).

ولقد كان بإمكان الرسول أن يأخذ من قال ذلك بالشدة، ولكنه استدعى الأنصار حتى يقضي على أية بادرة للفتنة أو للتأثير على البناء الضخم الذي أقامه، ومن ثم دار بينه وبينهم حوارا يُعد من أفضل وثائق الأدب السياسي والإنساني.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم)).

قال الأنصار: منا من يقول ذلك ونحن نؤيده.

قال الرسول: ((ألم آتكم ضلالا، فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم؟))

قال الأنصار: بلى، الله ورسوله أَمَنُ وأَفْضَلُ.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ألا تجيبوني يا معشر الأنصار)).

فقالوا: وبم نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((أما والله إن شئتم لقلتم ولصدقتم "أتيتنا مكذبا فصدقناك ومخذولا، فنصرناك، وطريدا، فأويناك، وعائلا فأسيناك)).

أوجدتم يا معشر الأنصار في العلالة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله

إلى رحابكم، فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت أمرا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار).

وماذا نتوقع من تأثير لهذا القول على القول على أفئدة وقلوب قوم مؤمنين؟ لقد امتلأت قلوبهم بالفرحة وغامت عيونهم بالدمع، الرسول منهم ومعهم وسيرجعون إلى المدينة به، رغم أنه فتح مكة، وكان يمكن أن يتخذها عاصمة له، لطالما تاقت نفسه وقلبه إلى بيته وكرمه وأرضه، ولكن الله حبب إليه موطن الإيمان، وعاد مع الأنصار إلى المدينة، حيث لم يبرحها إلا في أوقات قليلة، وتوفي في النهاية ودفن فيها.

أما الحادثة الثانية:

فكانت إحدى حوادث الرد على مكائد اليهود الذين ظلوا يمارسونها لهدم التضامن الاجتماعي الكبير الذي أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة، وترويها كتب السنة كالآتي: (مر أشاس بن قيس بالأوس والخزرج وقد ألف الإسلام بين قلوبهم بعد تناحرهم سبع سنين في يوم بعاث، وأشاس هذا يهودي مدفوع من قومه لتفرقة المسلمين، فقال (والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، فعمد أشاس إلى فتي من اليهود، فقال له جالسهم وأرو لهم ما قاله كل فريق في آخر أيام العداوة، ففعل، وتنازعوا وتواعدوا للقتال ونادوا (يا للأوس، يا للخزرج)، وأخذوا السلاح، ونزعوا للحرب فاثلج صدر أشاس وانسحب المهيج في نعومة وتركهم يتطاحنون، فجاء النبي وقال: (يا معشر المسلمين: الله الله —أبدعوة الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام وألفكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر؟ فبكوا وتعانقوا واصطلحوا). ونزل في ذلك قوله تعالى (يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا)[٧٧]

العلاقة مع اليهود:

٢٧- تقول الوثيقة أن (من تبعنا من اليهود، فإن له المعروف والأسوة غير مظلومين، ولا متناصر عليهم)، وتقول الوثيقة في موضع آخر أن (يهود بني عوف ومواليهم وأنفسهم أمة من المؤمنين، لليهود دينهم، وللمؤمنين دينهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود

---

(٧٧) سورة آل عمران، الآية رقم ٩٩

بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم، فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته، وإنه لا يخرج، أحد منهم إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل الصحيفة، وإن بينهم النصيحة والنصر للمظلوم).

(وإنهم إذا دعوا اليهود إلى صلح حليف لهم فإنهم يصالحونه، وإن دعونا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب الدين).

(إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين)

على أن المبدأ الذي يحكم العلاقة بين الرسول والمسلمين من ناحية واليهود من ناحية أخرى، هو الذي ورد في البند الأول والذي يقرر:

(إن المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس).

وهذا النص لا يدخل في نطاق الوطنية الإسلامية المسلمين فحسب، بل (من تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم).

وقد يفهم من هذا النص أن أمة الإسلام تشمل من تبع المسلمين الأولين وصار مسلما مثلهم، ولكن إمعان النظر في الوثيقة تجعلنا ننتهي إلى أن الوثيقة قصدت إدخال غير المسلمين في الأمة بشرط اللحاق بهم والجهاد معهم(٧٨).

وتزكي هذا التفسير العديد من النصوص الأخرى التي وردت بالوثيقة والتي ذكرناها آنفا، منها البند (٢٥) والذي يقرر أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم، آثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته. وقد بينت النصوص التالية المساواة بين كافة فرق اليهود في كافة الحقوق، حتى لا يقف هذا الحكم على يهود بني عوف.

٢٨- من ذلك نرى أن الطوائف التي تعيش بالمدينة تلحق بالأمة المسلمة ولها نفس حقوقها وعليها نفس واجباتها، بشروط هي:

---

(٧٨) يقول الأستاذ/ طاهر القاسمي في شرح الوثيقة (إن المجتمع الجديد في يثرب لم يتألف من المؤمنين والمسلمين وحدهم، وإنما كان معهم اليهود،وهؤلاء جزء من الأمة وعنصر من عناصرها، راجع مؤلفه: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، الطبعة الثانية (١٩٧٧) –دار النفائس، بيروت ص٣٧.

(١) أن ترضى هذه الطوائف بالدخول في العقد الاجتماعي الذي أبرمه الرسول مع المواطنين، فيتمتعون بنفس الحقوق ويلتزمون بنفس الالتزامات، تقول الوثيقة أن (من تبعنا من يهود فإن لهم النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم).

(٢) ألا يخرج عن مقتضيات العقد الاجتماعي بأن يخل ما بين الجماعة أو يظلم فردا من أفرادها (لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم وأنه من خرج من المدينة آمن، ومن قعد آمن، إلا من ظلم وأثم).

(٣) أن يشارك في الجهاد مع المسلمين ضد من يهاجم المدينة. وقد وضح هذا المعني في أكثر من موضع من الوثيقة (أن بينهم النصر على من دهم يثرب)، (وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة).

(٤) المشاركة في الأعباء المالية، فقد نصت الوثيقة صراحة على أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، (وعلى كل أناس حصتهم من النفقة). فاليهود كانوا طائفة موجودة في المدينة، ومن ثم لهم حقوق مثل مختلف المواطنين فيها، كما وأن إشراكهم في عهد يلزمهم بنصرة الدولة الإسلامية الناشئة، أمر له أهميته في تأمين الدولة الإسلامية في بداية نشأتها؛ لذلك يرى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الأموال: أن هذا العهد حدث في بداية قدوم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قبل أن يقوى الإسلام ويظهر، وقبل أن يؤمر بأخذ الجزية من أهل الكتاب.

وحقيقة أن الوثيقة تجعل مكانا له أهميته لليهود في المدينة باعتبارهم من عناصر شعبها، غلبت على هذه الوثيقة حتى رأينا كثيرا من المؤرخين يقولون بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد عمل على أن ينظم المدينة ويوحد بينها، ويجمعها تحت جامعة الإنسانية العامة ويقيم التعاون على أساس من الإخاء العام الذي يربط بين الإنسان وأخيه الإنسان، فكتب كتابا بين المهاجرين والأنصار بيَّن فيه ما يجب على المؤمنين والمسلمين بعضهم البعض من التكافل والتعاون والتناصر ووادع فيه اليهود وعاهدهم بشرط أن يكونوا مع المسلمين يدا واحدة على من دهم يثرب أو حارب أهلها، وأن يُنفقوا مع المؤمنين ما داموا محاربين، على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم[٧٩].

---

(٧٩) الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، والمخطوط كتب في عام ٢٢٤، ص٢٩٧ وما بعدها.

العلاقة مع أعداء الإسلام:

٢٩- تمثل هذه الوثيقة نقطة بداية هامة لكل من يرغب في معرفة العلاقات الدولية في الإسلام، وبالذات علاقة المسلمين مع غيرهم من غير المسلمين. وقد بينا طبيعة العلاقة التي أقامها الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين يهود المدينة، ويثور التساؤل عما إذا كان الإسلام قد اعترف بعلاقات سلمية مع غير المسلمين وغير اليهود؟

ونجد في هذه الوثيقة إجابة على هذا التساؤل.

فالوثيقة تميز بوضوح بين قريش باعتبارها عدو المسلمين، وغيرهم من المشركين فبالنسبة لغير قريش ممن يقيمون بالمدينة فالوثيقة تشملهم، سواء لأنهم من بطون القبائل التي عددتها الوثيقة واعترفت بها وأعطتها نفس حقوق المسلمين، وسواء إذا ما قرأنا نص البند (٣١) من الوثيقة والذي ورد به:

(أنه لا يُجير مشرك مالا لقريش، ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن)

فالمشركين الذين شملهم العقد الاجتماعي، عليهم واجب أساسي بحكم كونهم من مجتمع المدينة المتحالفين مع الرسول، فعليهم ألا يجيروا أحدا من قريش، أو مالا له، كما لا يجوز لهم أن يمنعوا المسلمين من أخذ أموال قريش التي تقع في أيديهم.

فكل من يعيش في المدينة له الحقوق الواردة في الوثيقة، بلا تفرقة بين مسلم وغير مسلم، أما بالنسبة لمن لا يعيشون في المدينة، فإنه ينبغي التفرقة بين الأعداء وغير الأعداء فالأعداء، وقد كانوا في وقت كتابة الوثيقة قريش، فقد أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه من بلدهم وديارهم وأموالهم، وعذبوهم قبل ذلك، وتآمروا على الرسول ليقتلوه ويستأصلوا الدين الإسلامي، بلا سبب إلا أن يقول ربنا الله ويدعوهم للهداية، ولم يقف الأذي حتى عندما هاجروا إلى المدينة، بل استمر، فلا ننسى أن قريشاً أرسلت من يقتفى أثر الرسول ورصدوا مكافأة ضخمة لمن يأتي به أو برأسه، وما برحوا يمارسون العداء لدعوته ولدينه، ومن هنا كانت مبادلة العداء بالعداء، ومحاولة الرسول إنشاء قوة ضخمة في المدينة يواجه بها عدوان قريش، فضلا عن أنه مما لاشك فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستهدف دخول بلده، ومواجهة من يصدون الناس عن دعوته، فلو أعطت قريش للرسول الفرصة للدعوة ولم يقفوا في سبيله ويمنعوا الناس عن الاستماع له، بصرف النظر عن إيمانهم؛ لأمكن له نشر الدين بين العرب الذين يحجون إلى الكعبة.

العلاقة مع باقي الشعوب:

٣٠- وهكذا نجد الرسول صلى الله عليه وسلم قد وضع الترتيبات الكفيلة بإنشاء هذه القوة، ومن ثم كان سعيه إلى إقامة الدولة والسلطة المنظمة حتى يمكنه أن يحقق غرضه؛ لذا كان مبادلته قريش موقف العداء، دون باقي المشركين سواء الذين يسكنون المدينة أو الجزيرة العربية أو غيرها من الأقطار حيث لم تمنع الوثيقة قيام علاقات سلمية بين المدينة وبينهم.

وهذا أبلغ ردٍّ نُقدمه على ما يشاع عن أن الإسلام يفرض الحرب المستمرة على كل الناس حتى يكونوا مسلمين، وأنه لا سلم على الإطلاق بين دار الإسلام ودار الحرب، تلك الدعوى التي نجد لها أساسا في كتابات العديد من الفقهاء المسلمين في تقسيمهم الديار إلى دار إسلام ودار حرب، ودار عهد، والتي تلقفها العديد من المستشرقين ليرتبوا عليها العديد من النتائج من أهمها: أن الإسلام لم يقم إلا بحد السيف، وأنه يعلن حربا على كل من يخالفونه في الرأى حتى يسلموا.

ومع أننا لا نستهدف تناول هذه القضية فيما نكتبه الآن، إلا أننا سنعرض للنصوص التي وردت في هذه الوثيقة تدعم هذا الاستنتاج. ونجد في الوثيقة بهذا الخصوص بندين:

الأول: قرر أن المسلمين إذا دعوا اليهود إلى صلح حليف لهم فإنهم يصالحونه، وأنهم إذا عونا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب الدين.

الثاني: قرر أنه لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

فالنص الأول يلزم المسلمين أن ينضموا إلى تحالف مع اليهود وقبائل غير مسلمة إذا ما وافق اليهود على مخالفة حلفاء المسلمين، من غير المسلمين طبعا، ولا يمكن أن يتم التحالف على النصر إلا إذا كان الدين الإسلامي يجيز التعامل مع غير المسلمين ممن لا يقيمون في الدولة الإسلامية بالطبع.

أمَّا النص الثاني فيجيز للمسلمين مخالفة غير المسلمين على حقن الدماء؛ بشرط أن يكون ذلك على أساس ما يتفق مع العدالة والمساواة.

الفرع الثاني
المقومات الأساسية لمجتمع المدينة

٣١- تحتم الوثائق الدستورية لكل دولة بتوضيح الأسس التي يقوم عليها المجتمع، والمبادئ الرئيسية التي قبل الناس العيش وفقا لها، والحقوق والحريات العامة التي تعطى لمن يعيشون في الوطن، فضلا عن تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، إنها مسائل أساسية في كل دستور حديث وفي أية وثيقة تستهدف تحديد أسس بناء أية دولة.

وتعكس هذه الوثيقة الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تسود كل جماعة، كما تُعبر عن الفلسفات الخاصة لغالبية أفراد الجماعة وما ترغب أن تحكم به من مقومات.

ومهما قيل في ثبات الدساتير وعدم قابليتها للتعديل، فلا شك أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً على طول الخط؛ لأن الدستور يوضع في وقت معين، وفي ظل ظروف لابد أن ينالها التغيير والتعديل بحكم تطور الحياة الإنسانية وعدم ثباتها على حال.

على أساس هذا الفهم نستطيع أن نُوضح العديد من المفاهيم التي وضعت لحكم الدولة الإسلامية في القرن الهجري الأول، والتي استمر التشريع السماوي في النزول على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بعد وضع هذه الوثيقة بما يزيد على عشر سنوات، ولابد أن يكون القرآن الكريم قد أضاف إلى مقومات الحياة الإسلامية الكثير خلال هذه الفترة، كما أن نمو القوة الإسلامية خلالها والاحتكاك المستمر بينها وبين الجماعات الأخرى المتحالفة معها والمعادية لها، قد أضاف العديد من الأسس إلى مقومات الحياة الإسلامية، وغير ذلك الكثير من الأسس التي رأى رسول الله أن ينظم مجتمع المدينة بها في السنة الأولى بل في الأيام الأولى لوصوله إلى المدينة، من هنا لابد من أن يأخذ الباحث في اعتباره الظروف المختلفة للدولة الإسلامية التي أدت إلى استمرار دوام بعض المبادئ التي وضعت في الوثيقة، وبالعكس تغير بعض هذه المبادئ وتجعل قيمتها نسبية وهي بالجملة ليست أحكاما كثيرة.

مع ذلك لا يستطيع المرء إلا أن يحني رأسه إجلالا لهذا السبق التاريخي في وضع وثائق بناء الدول، وفي صياغة مبادئ وأسس تتضمنها الوثائق الدستورية الحديثة، منذ أن بدأت الدول تعرف هذا المصطلح في القرن السادس عشر الميلادي حتى الآن.

والواقع أن العديد من المقومات التي تتضمنها الدساتير الحديثة تمثل تفصيلات تترتب على إقرار مقوم أساسي، كما أن للزمن دوره في صياغة العديد منها بحكم قيام مؤسسات تعليمية وصحية واجتماعية مختلفة لم تكن موجودة من قبل.

وعندما نأتي إلى الوثيقة نجدها متقدمة تماما في هذا المجال، بل نجدها قد أوردت تفصيلات في المبادئ الرئيسية التي ينبغي أن تقوم عليها العلاقات الاجتماعية في الجماعة الجديدة، وسنهتم بإبراز هذه المقومات.

أولا: التكافل الاجتماعي بين سكان المدينة

٣٢- جعلت الوثيقة في المقام الأول التكافل الاجتماعي بين المواطنين في الدولة الجديدة بمختلف عناصرها المسلمة وغير المسلمة، وتجلت عبقرية الرسول صلى الله عليه وسلم في فن بناء الأمم والجماعات في تحديده لأهم عناصر التكافل الاجتماعي الذي يجب أن تقوم عليه الأمة الجديدة.

(١) التضامن في المسئولية عن الجنايات:

تتحدث البنود من الثالث إلى الحادي عشر عن مبدأ إعطاء البيانات وأخذها، وتوضح تفصيلا العناصر المختلفة للأمة الجديدة من مسلمين ومقيمين من يهود وغير مسلمين، وتقرر ما كان سائدا بينهم من قبل في طريقة معالجة حالات القتل، دون الأخذ بالثأر الذي ساد المدينة فترة طويلة وكاد يقضي على سكانها.

هذا العرف إذن من الأعراف المفيدة والنافعة للأمة، وفي إقراره كنظام للدولة الجديدة ما يقويه، ويجعل الخروج على مبادئ الأمة وقوانينها ممنوعاً؛ لذا اهتمت الوثيقة اهتماما بالغاً.

صاغت الوثيقة -على ذلك-مبدأ من المبادئ التي عمت الدولة الجديدة هو مبدأ التضامن في المسئولية بين بطون القبائل عما يحدث من أحد أفرادها من جرائم.

هذا المبدأ هو الذي أمكن به حقن مزيد من الدماء بين الأوس والخزرج قبل وصول الرسول إلى المدينة، إذ تم عد من قتل من كل فريق، ودفعت كل قبيلة دية من قتل من القبيلة الأخرى. أقر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الوضع وجعله من المقومات الأساسية للدولة الجديدة، فألزم سكان المدينة بأن يقيموا ما كان سائدًا بينهم من قبل من قيام كل

بطن من بطون القبائل –التي ذكرت الوثيقة اسمها تفصيلا– بإعطاء المعاقل وفداء من لا يستطيع منهم أن يدفع الدية تضامنا بين الجميع.

وإن كان زاد على ذلك في هذه الرواية حكما يتسق مع الدين الإسلامي الذي جاء به، لاستئصال هذا الداء العضال الذي فرق العرب وجعلهم أعداء.

فقد ورد في البند (٢١) أنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بيّنه فإنه قود به، إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

إنه تأكيدٌ لمبدأ الكل في سبيل الفرد والفرد في سبيل الكل، الذي تحاول المجتمعات الحديثة أن تقنع أفرادها بالعيش وفقا له، وهو أيضا صورة مبكرة من صور الأمن الجماعي، فقد ألزم العقد الاجتماعي المؤمنين أن يتضامنوا ضد من يقتل أحدهم كافة، وأنهم عليه جميعا ولا يحل لهم إلا القيام عليه، إنه نفس الحكم الديني الذي ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا)[٨٠].

٣٣– على أن التضامن في المسئولية في هذا المجتمع الجديد، والتعاون بين الجميع على رفع الظلم لا يقتصر على حالة القتل فحسب، بل يمتد ليتناول كافة صلات البغي أو الظلم أو الإثم أو العدوان أو الفساد، ولو كان المحدث أو المفسد ولد أحد المؤمنين. ورد في البند (١٣) من العقد أن (المؤمنين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثما أو عدوانا، أو فسادا بين المؤمنين، إن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم). كذلك ورد بالوثيقة تأكيد لهذا المعني يمنع إيواء المجرم أو نصره (فلا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه. وأن من نصره، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه عدل ولا صرف).

هذه المبادئ التي وضعت في بداية قيام الدولة الإسلامية في المدينة تبدو–في نظر أي باحث في السياسات الجنائية الحديثة– متقدمة جدا، فهي كفيلة بمنع الأخذ بالثأر، ذلك الداء الذي لا يزال ساريا في العديد من أجزاء العالم الإسلامي، ومنه مصر.

---

(٨٠) سورة المائدة، الآية رقم ٣٢.

فالقوانين الجنائية الحديثة كثيرا ما لا تكون رادعة فتخيب آمال الناس في العدالة فيلجئون إلى القصاص بأيديهم مما يشيع الفوضى في المجتمع، ولو طبقت هذه المبادئ الرشيدة لانتهي هذا الداء العضال من مجتمعاتنا.

كذلك تؤدى قواعد الإثبات وتحديد الأدلة في القوانين الجنائية الحديثة إلى مشاكل عديدة من أهمها: ظاهرة إفلات المجرمين من العدالة. ونظام الوثيقة يقيم تضامنا في المسئولية بين بطون القبائل يؤدى إلى ملافاة هذه الظاهرة، وإن كنا ننبه إلى اهتمام الوثيقة بإقامة المسئولية الجنائية الشخصية في حالة التوصل إلى معرفة المجرم، بل نجد فيها نصوصا قاطعة في ذلك كالنص الذي يقول: (أنه لا يأثم امرؤا بحليفه، وأن النصر للمظلوم)، والنص الذي يقول (أما من ظلم وإثم، فإنه لا يوقع إلا نفسه..).

(٢) الضمان الاجتماعي:

٣٤- أقرت الدساتير الحديثة مبدأ الضمان الاجتماعي كعنصر رئيسي لقيام التكافل الاجتماعى ومؤداه أن الدول الحديثة تقوم بإعانة من لا يستطيع أن يكسب قوت يومه بسبب عجز أو مرض، وإن كان مدى التقدم في إقرار هذا المبدأ يختلف من دولة إلى دولة، ولم يصل تطبيقه إلى مستوى كبير إلا في قليل من الدول الأوروبية الحديثة.

أما الإسلام فقد توسع في تطبيقه، وأقام نظام الدولة الإسلامية عليه بفرض الزكاة ووضع نظاماً لتوزيع أموال من بيت المال على المحتاجين، وكانت هذه الوثيقة بداية لتقرير مثل هذا المبدأ عندما ذكرت بوضوح (إن المؤمنين لا يتركوا مفرحا -أي مثقلا بالدين- أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل).

إذن لابد أن تمد الجماعة يدها إلى المثقل بالدين -سواء لكثرة العيال- وهو المعني الذي ورد في القواميس لكلمة (مفرح)- أو لغير ذلك من الأسباب[٨١]، وقد ذكرت الوثيقة التزام المؤمنين بأن يعطوه بالمعروف ما دام محتاجا[٨٢]، وخصَّت بالذكر حالتي الفداء من الأسر أو

---

(٨١) أمين دويدان، صور من حياة الرسول، دار المعارف بمصر، ص٢٦٦.

(٨٢) راجع أحمد عبد الحميد الشامي -سلسلة في تاريخ العرب الإسلامي، مكتبة الأنجلوا (١٩٨٢) ص٢٠٦ وقد اعتبرت هذه الفكرة أساس نظرية الضمان الاجتماعي التي عرفتها أوروبا في بداية القرن العشرين ونقلتها عنها الدول العربية في أواخر الأربعينات، وأوائل الخمسينات من هذا القرن.

إعطاء الدية، وإن كان هذا التخصيص قد أتي للتنبيه إلى أهمية هاتين الحالتين، الأولى لحقن الدماء بين الجماعات المسلمة، والثانية لرد الفرد المؤمن الذي بأيدي الأعداء إلى الجماعة.

وسواء ذكر الالتزام يقتصر على هاتين الحالتين، أو يمتد إلى كافة صلات حاجة المؤمن إلى المال، فإن البداية التي تمثلها هذه الوثيقة من الأمور المهمة وفي إقرارها كمبدأ دستوري ما يكفل تناولها بالتنظيم المفصل في القوانين لو استعملت لغة عصرنا، وهذا التفصيل الذي لا يغطى في معظم تشريعات دول العالم كافة الحالات، ولا أهمها، أما الإسلام في التشريعات اللاحقة، فقد غطاها، وفي هذه الوثيقة تنبيه لأهم ما يتصل بها من أمور بناء الدولة.

ثانيا: حسن الجوار:

٣٥-اهتم الإسلام بإقامة العلاقات الاجتماعية في المجتمع الإسلامي على عناصر أخلاقية واضحة من ذلك الحض على حسن الجوار، والقرآن الكريم يوصى بالجيران خيرا سواء كان الجار ذا قربى، أو جاراً أجنبيا، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل يوصى بالجار وينقل أن الله سبحانه وتعالى ما زال يوصيه حتى ظن صلى الله عليه وسلم أنه سيورثه، وفي عبارات قليلة صاغت الوثيقة حقيقة الموقف الإسلامي من هذه المسألة إذ ورد بها (إن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم).

ثالثا: حرية العقيدة في الدولة الجديدة:

٣٦- حرصت الصحيفة على تأكيد حرية الرأى وحرية العقيدة لأهل الصحيفة فالبند (٢٥) يقرر أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم ومواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته. وحرصت البنود التالية من الصحيفة أن تذكر نفس الحق بالنسبة لكافة بطون اليهود (البنود من ٢٦ إلى ٣٥). والملاحظ أن هذا الحق قد قرر ليس لأهل المدينة فقط، بل لليهود خارج المدينة أيضا بصريح ما ورد في البند (٣٥) الذي يقول أن بطانة يهود كأنفسهم، وقد فسرت البطانة بأنهم اليهود خارج المدينة.

رابعا: مبدأ المساواة بين عناصر الدولة:

٣٧- وضعت الوثيقة مبدأ أساسيا تقوم عليه العلاقات بين أهل المدينة، وتقوم كافة الدول الحديثة عليه، وهو مبدءًا المساواة بين الناس أمام القانون.

كذلك ورد في البند (١٥) أن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين موالى بعض، دون الناس[٨٣].

وبالنسبة للمساواة بين المسلمين وبقية أطراف العقد الاجتماعي، فقد ورد في العديد من النصوص مثل: (وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحصن من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم)، وقد أكدت العديد من البنود تمتع سائر اليهود باختلاف البطون التي ينتمون إليها، بنفس هذه الحقوق التي يتمتع بها يهود الأوس، وهي الحقوق التي يتمتع بها أهل هذه الصحيفة[٨٤].

(٨٣) ممن فسروا عبارة الوثيقة على أنها عامة لا تقتصر على حالتي الفداء والدية.

(٨٤) الأستاذ الدكتور/ عبد المنعم ماجد، ودوزي، إذا يقررون في معنى (يتعاقلون) يتضامنون حتى في التخفيف عمن أثقله الدين ولا يستطيع الوفاء به، وليس به ولاء ولا عشيرة (مفرح). راجع للأول: التاريخ السياسي للدول العربية –الجزء الأول– الطبعة السابعة، (١٩٨٢) مكتبة الأنجلو المصرية ص١١.

obeikandl.com